

الدولة الفاطمية

الموسم

السيد حسن الأمين

إذا كان من عهد يحق للعرب أن يباهوا به في ماضيهم الطويل فهو عهد الفاطميين وحدهم، وإذا كان من دولة يستطيع المسلمون أن يتفاخروا بها فهي الدولة الفاطمية وحدها. ولعل هذا القول يبدو مفاجأة للكثيرين، ولعل هناك من لا يعجبه هذا القول ويعتبره كلاماً ملقى على عواهنه.

ونحن لايهمنا أزراء المزيين ولا تعصب المتعصبين ولا تقليد الجامدين ما دمنا نسمي الأشياء باسمائها، فلقد آن للسجف الملقاة على العقول أن تنمزق فتستتير العقول، وقد آن للذكر أن ينطلق من ظلمات الماضي في أنوار الحاضر والمستقبل، وقد آن للعرب أن يدركوا أي زيف حفل به تاريخهم المجيد، وأي تزوير دس عليه فتلقفته الأجيال وكأنه حقائق خالصة.

نعم، إن العهد الوحيد الذي يحق للعرب أن يباهوا به هو العهد الفاطمي، فليس في تاريخ الفاطميين مثلاً وال مثل سمرة بن جندب والي معاوية على البصرة، هذا الوالي الذي قدم مرة من المدينة فلما كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففجأ أول الخيل، فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة، فأتى عليه سمرة وهو متشطح بدمه، فقال ما هذا؟ قيل أصابته أوائل خيل الأمير. فقال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا استنتنا.^(١)

هذا الوالي الذي قتل في أيام، ثمانية آلاف قتيل صبرا، فقال له زياد: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً، فقال سمرة: لو قتلت اليهم مثلهم ما خشيت. وكان قد قتل من قوم أبي سوار العدوي وحدهم سبعة وأربعين رجلاً قد حفظ القرآن.^(٢)

وليس في قوادهم مثل يزيد بن المهلب الذي دخل مدينة «دهستان»، فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز ومن السبي شيئاً لا يحصى وقتل أربعة عشر ألف تركي صبرا وكتب بذلك إلى سليمان بن عبد الملك^(٣)

(١) - الطبري.

(٢) - نفس المصدر

(٣) - نفس المصدر

والذي أعطى الله عهداً لئن ظفر بأهل جرجان أن لا يرفع السيف عنهم حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه، فلما انتصر عليهم سبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان فقتلهم وأجرى الماء في الوادي على الدم، وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم وتبر يمينه فطحن واختبز وأكل، وقد بلغ مجموع ما قتل من أهل جرجان وحدها أربعين ألفاً^(١) وليس في ولاية الفاطميين وقوادهم، قائد مثل قتيبة بن مسلم الذي قتل (نيزك) بعد ما أمنه وقتل معه اثني عشر ألفاً صبراً، والذي أسر مرة أربعة آلاف أسير فقتلهم، قتل بين يديه ألف وعن يمينه ألف وعن يساره ألف وخلف ظهره ألف^(٢).

ليس في تاريخ الفاطميين مثل هؤلاء الولاة والقواد ومئات الولاة والقواد أمثالهم ممن شوخوا تاريخ العرب وسودوا صفحة الإسلام، وصوروها بأشنع صورة وأقبح مثال. إن تاريخ الفاطميين هو تاريخ العلم والأدب والحكمة، هو تاريخ الحرية المقدسة، حرية الوجدان، حرية المرء بأن يعتقد ما شاء على أن لا يعتدي على غيره، وهل أروع من حرية الوجدان تطلقها الدولة وتحميها، وهل أعظم من أن تجعل الدولة نفسها مدرسة عامة تنشر العلم وتبث الأدب، وترعى العلماء وتكرم الحكماء.

هذا ما كانت عليه مصر أيام الفاطميين مما لم يشهد قبلهم مثله بلد من البلاد ولا دولة من الدول. ولكن الذين خلفوا الفاطميين كان تفكيرهم عاراً على العروبة والإسلام، وكانوا على النقيض من الفاطميين يتأكل التعصب قلوبهم ويعمي الجهل أبصارهم فحاولوا طمس الحقائق واستطاعوا.

الأزهر

أنشأ الفاطميون الأزهر فكان أول جامعة بالمعنى المقصود من هذه الكلمة، وسيظل أقدم جامعة عرفتها الدنيا، وليس المهم أن يكون الأزهر جامعة، بل المهم هو أن الفاطميين قد أنشأوا الجامعة قبل إنشاء القصر ومع إنشاء الدولة يقينا منهم أن الدولة يجب أن تركز على العلم وعلى الفكر، والمهم أيضاً هو هذه الحرية الفكرية التي أطلقها الفاطميون في رحاب الأزهر. يقول الكندي: سنة ٣٨٣ رتب رجل جعصري للجلوس في الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت فشغب عليه الفقهاء من أهل الجامع «من أهل المذاهب الأخرى» فبلغ ذلك القاضي فقبض على بعضهم. ماذا يعني هذا الكلام؟ أنه يعني أن الفاطميين أصحاب الدولة ذات المذهب المعين، المحوا لمن ليس على مذهبهم أن يجلسوا في مسجد الدولة الرسمي فيفتوا على مذاهبهم التي تخالف مذهب الدولة. فهل في تاريخ الدول العربية كلها دولة أقامت أمرها على مثل هذه الحرية؟ لو أردنا أن نصف ما كانت عليه الحرية في عهود تلك الدول لرأينا عجباً، فمعاوية بن أبي

سفيان مثلاً يرسل سفيان بن عوف الغامدي إلى العراق ويوصيه قائلاً: «اقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك». والائمة والعلماء الذين رفضوا أن يعتقدوا بخلق القرآن يعرف أقل الناس أطلاعاً ما نالهم من المحن، هذا عدا تهمة الزندقة التي كانت الوسيلة للخلاص من رجال الفكر والعلم حيث وجدوا.

يجري كل هذا وافطع من هذا ثم يبيع الفاطميون في مسجدهم الرسمي ومقر دعوتهم لكل صاحب رأي أن يفتي بما يؤدي إليه اجتهاده، وهو اجتهاد لا يتفق مع اجتهاد الدولة. ثم ماذا؟ أن الفقهاء الذين حمتهم الحكومة ويسرت لهم حرية لغيرهم، يأبون هذه الحرية للدولة التي يسرت لهم حريتهم وحمتهما، فيثيرون عليها الشغب لأنها وضعت إلى جانبهم رجالاً جعصري الرأي له من الحقوق مثل مالهم.

ملجأ العلماء

وليس هذا فحسب فإن مصر الفاطمية أصبحت ملجأ العلماء والمفكرين، يفرون إليها من الاضطهاد والفقر فتعقد عليهم ما شاؤوا من الحرية ومن المال.

هذا عبد السلام بن محمد بن بندار أبو يوسف القزويني شيخ المعتزلة يفد إلى مصر ويقيم فيها أربعين سنة يلقي خلالها تعاليمه التي تخالف تعاليم الفاطميين.

وهذا القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي أمام الشافعية يفد إلى مصر فيملي فيها من مذهبه ما شاء أن يمللي ويظل كذلك تحت بصر رجال الدولة الفاطمية حتى يموت سنة ٤٤١. وأبو الفتح سلطان بن إبراهيم الفلسطيني (٥١٨) يفد كذلك بين العلماء الوافدين وأبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز الميوري (٥٢٣) ومجلي بن جميع المخزومي (٥٥٠) والقاضي أبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الخلعي (٤٤٨) وأبو محمد عبد الله بن رفاعه بن عذير السعدي (٥٦١) والقاضي القضاعي. وهؤلاء الخمسة الآخرون ممن ولي القضاء للفاطميين بالرغم من أنهم كانوا شافعيي المذهب.

ولقد حرصنا على أن نختار واحداً من كل فترة تاريخية لنبين أن الأمر قد استمر ولم ينقطع، ولو أردنا أن ندلي بعشرات الشواهد لكنت الاسماء تحت أيدينا.

وهؤلاء الذين عدناهم أنفأ كانوا على المذهب الشافعي، ومن فقهاء المالكية، عرفت مصر الفاطمية أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعال الذي كانت إليه إمامة المالكية، وإليه كانت الرحلة بمصر، وكانت حلقة في الأزهر الفاطمي - نعم الأزهر الفاطمي - تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه^(١) (٣٨٠).

(١) - يقول الدكتور مصطفى مشرفة في مجلة المقطف أنه كان للمالكية في الأزهر ١٥٠ حلقة وللشافعية مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات. وأصحاب هذه الحلقات هم الذين شغبوا على العالم الجعصري الذي مر ذكره فيما تقدم.

وهناك قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي أحد الثمة المجتهدين في المذهب والذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم ير في المالكية أفقه منه. هذا العالم المجتهد صاحب هذه الصفات تضيق به دنيا العرب وحياة الإسلام، فيكاد يموت من الجوع في بغداد ويتطلع إلى البلد الذي يحفظ عليه رmqه ويقيه بؤس العيش فلا يجد إلا مصر الفاطمية التي تخالفه في العقيدة والمذهب، فما أن يصل إلى مصر حتى تتلقاه الدولة بالترحاب وتغدق عليه المال وتأمّره بالانصراف إلى علمه واجتهاده وتحيطه بحفاوة بالغة وعناية فائقة، ولكن الأمر لا يطول به فيمرض، ويصاب بالشلل، فيقول كلمته المأثورة: «لا إله إلا الله، عندما عشنا متنا (٤٢٢). وعبد الجليل مخلوف الصقلي، (٤٥٩) وأبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي نزيل الأسكندرية (٥٢٥) وغيرهم كثيرون.

والحاكم بأمر الله، هذا الذي يشنع عليه المشنعون، الحاكم هذا لما أمر بعمارة دار العلم ونقل إليها الكتب من القصر، اسكنها شيخين من شيوخ السنة أحدهما أبو بكر الانطاكي وخلع عليهما وقربهما وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته، ومن أشهر العلماء الذين القوا بعلومهم في دار العلم رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر، لجأ إلى مصر فيمن لجأ إليها، فأعجب به الحاكم وخلع عليه ولقبه بعالم العلماء، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة.

مصر تتحول إلى خلية علماء

قلت أن الفاطميين أنشأوا الجامعة قبل القصر، ولم يسبقوا العالم كله إلى إنشاء الجامعات فقط بل سبقوه إلى إنشاء ما عرف اليوم بقاعات المحاضرات العامة، فإنهم أنشأوا ما عرف باسم (المحول) يقول صاحب (المجالس والمسامرات) وكان يؤم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس.

ويقول السيوطي: أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة اللغوي النحوي قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا اسحاق علي بن سليمان المعري النحوي، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذكرات. ويروي المقرئ عن المسيحي أنه سنة ٤٠٣ أمر الحاكم الله باحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد، وجماعة من دار العلم من الأطباء إلى حضرته للمناظرة بين يديه، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد، ثم خلع الحاكم على الجميع ويصلهم. ودار العلم هذه التي ورد ذكرها فيما تقدم كانت -كما يقول الدكتور محمد كامل حسين الأستاذ بكلية آداب القاهرة- «كانت بمثابة جامعة فيها اساتذتها وبها مكتبتها، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل، فالفاطميون بأنشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي امتازت بها المدينة الحديثة في أيامنا هذه».

ويقول الدكتور أيضاً: «بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم». ويقول ابن أبي أصيبعة «أنه لما وصل المذهب - وكان فاضلاً في صناعة الطب - إلى الشام من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته، وسمع بالديار المصرية وأنعام الخلفاء فيها وكرمهم وأحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما أرباب العلم والفضل فتوجه إلى مصر، فوهبت له الأموال وأقام فيها مكرماً».

ويلغ الأمر إلى أن الغزالي الذي هاجم الشيعة بعامة والفاطميين بخاصة، والذي شحن كتبه بالتحامل عليهم، لم يجد آخر الأمر إلا مصر الفاطمية بلداً يأويه ويحميه ويشجعه على مواصلة البحث والدرس، وتناسى الفاطميون تعصب الغزالي واعتدائه عليهم ولم يذكروا إلا أنه عالم، وحق العالم عليهم حق كبير، وواجبهم لعلمه واجب محتوم، تناسوا ما نالهم منه في كتبه (القسطاط والمنقذ من الضلال والمستظهر) وغيرها فأحلوه في دولتهم على الرحب والسعة، وألف بعض كتبه ككتاب مشكاة الأنوار في رعايتهم وبين ظهرانيتهم.

ولم تقتصر رعايتهم على العلماء المسلمين فحسب، بل أن تسامحهم شمل العلماء من غير المسلمين، فأبو الفتوح منصور بن مقيش كان طبيباً للعزیز والحاكم، وبعد وفاته استطب الحاكم اسحاق بن ابراهيم بن نسطاس، وهناك أسماء رجال عديدين من العلماء غير المسلمين عني بهم الفاطميون وشجعوهم.

وعندما نعد العلماء الذين احتضنتهم مصر فإن أشهر واحد من هؤلاء العلماء هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم، ويقول عنه الاستاذ محمد رضا مدور: «إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغالياً إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبة تضاهي مرتبة اينشتاين في عصرنا هذا».

ويقول عنه الاستاذ مصطفى نظيف: «أن ابن الهيثم قلب الاوضاع القديمة وانشأ علماً جديداً، هو قد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وانشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالاصول التي نراها».

ويقول عنه الدكتور محمد كامل حسين: «ولكن ذنب ابن الهيثم انه كان في مصر الفاطمية فلقيت تعاليمه وأراؤه مالتيت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب من أتى بعد الفاطميين، فكل عالم من علماء مصر الفاطمية يجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه، وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء».

الاسماعيليون

هم القائلون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام بعد ابيه جعفر وبذلك اختلفوا عن الشيعة الامامية الاثني عشرية الذين قالوا بامامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق. وقد كانت الدولة الفاطمية على المذهب الاسماعيلي. وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) حصل انشقاق خطير في صفوف الاسماعيليين ذلك أنه تولى الخلافة بعد المستنصر ولده أبو القاسم أحمد. ولكن أحمد هذا لم يكن الابن الأكبر للخليفة ولا كان هو المؤهل لولاية العهد بنظر بعض الاسماعيليين بل كان المؤهل لها، بنظرهم، أخوه الولد الآخر نزار ويرون أن الخليفة المستنصر عهد إلى نزار بولاية العهد فعلاً وأخذ في البيعة له خلال مرضه إلا أن وزير الخليفة الأفضل بن بدر الجمالي أخذ يماطل بذلك ليحول دون نزار وولاية العهد لأمر كانت بينه وبين نزار ولقرب أبي القاسم أحمد من الوزير الأفضل، كما يرون أن المستنصر توفي ووزيره الأفضل مسيطر على الحكم فتمت بذلك ولاية العهد وانتقال الخلافة لأبي القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلي بالله.

وهكذا فقد انقسم الاسماعيليون عام ٤٨٧هـ. إلى فرقتين واحدة تقول بامامة أبي القاسم أحمد المستعلي بالله وسميت بالتالي المستعلية وتعرف اليوم بالبهرة وثانية تقوم بامامة نزار وسميت بالتالي النزارية وتعرف اليوم بالاغاخانية.

الاسماعيليون النزاریون الباطنيون (الأغاخانية)

على أثر تولي المستعلي بالله أبي القاسم أحمد الخلافة بعد المستنصر مضى نزار إلى الاسكندرية فتلقيه وإليه ناصر الدين افتكين بقبول حسن وبإيعه هو وأهل الاسكندرية فلما علم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بذلك خرج إلى الاسكندرية يقود جيشاً كثيفاً ولكنه انهزم وعاد إلى القاهرة.

ثم جهز جيشاً آخر وعاد لحصار الاسكندرية والتضييق عليها بعد أن استمال بعض اتباع نزار من العريان فاضطر للتسليم هو وافتكين فأمنهما الأفضل ثم فتك بهما.

على أن في النزاریين من يقول أن نزاراً لم يقتل في مصر وأنه غادرها مع أهل بيته متخفياً بزي التجار نحو سجلماسة حيث مكث عند عمته هناك بضعة شهور حتى عادت إليه الرسل التي أوفدها لابلاغ الحسن بن الصباح عن محل اقامته فسار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقي من دعائه حيث استقر بقلعة الموت مع الحسن بن الصباح.

وثمة من يقول أن الحسن بن الصباح^(١) كان في مصر حين وقوع الخلاف على ولاية العهد

(١) - انظر اعلام الاسماعيلية نقلاً عن مخطوطة اسماعيلية.

فلم يقر ما جرى وكان ممن يرون أن المستنصر كان مكرهاً على تولية ولده أحمد وأن الأمر هو لنزار لا لأحمد ففر الحسن بن الصباح من مصر داعياً إلى نزار ثم أرسل بعض فدائييه فاحضروا ابناً لنزار إلى قلعة الموت.

وفي قول آخر أنه لم يخرج من مصر حتى أخرج معه ابناً لنزار واسمه في سلسلة الأئمة النزاريين علي ولقبه الهادي فاخفاء الحسن وستره. وبهذا أصبح الحسن بن الصباح الرجل الأول والموجه الفعلي للدعوة النزارية.

ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحسن الصباح، «أصبح صاحب الأمر في الدعوة الجديدة دون أن يدعي الإمامة وأن كان العقل المدبر واليد الفعالة لجميع الحوادث التي كانت تجري في العالم الإسلامي في ذلك العصر».

وبعد وفاة الحسن بن الصباح عام ٥١٨هـ وعندما تولى أمر الدعوة النزارية الحسن الثاني ابن محمد كيابزرك سنة ٥٥٨هـ، وهو الذي يقرن اسمه بجملة «على ذكره السلام» طراً تحول خطير على العقيدة الإسماعيلية النزارية ذلك أن الحسن الثاني المذكور دعا اتباعه إلى طرح جميع التكاليف الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض وبذلك انقطعت الصلة بين هذه الفرقة، أي الفرقة النزارية، وبين العقيدة الإسماعيلية الفاطمية ولكنها ظلت مع ذلك تحمل اسم «الإسماعيلية».

وفي ١٧ رمضان سنة ٥٥٩هـ اذاع الحسن الثاني بأنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر وبذلك أعلن ظهور الأئمة النزاريين بعد أن كان هو من قبله يحكمون باسم الإمام المستور، على أن الحسن الثالث جلال الدين حفيد الحسن الثاني الذي تولى الأمر سنة ٧٠٦.

أمر بالقيام بالفرائض الدينية والعودة إلى ماكان عليه الحال قبل جده الحسن الثاني وأمر ببناء المساجد وقرب إليه الفقهاء والقراء وأحسن اليهم ثم اتصل بالخليفة العباسي الناصر لدين الله وبالمملك خوارزم شاه وغيرهما من ملوك المسلمين وامرائهم. ولكن الأمر لم يلبث بعد اغتيال الحسن الثالث هذا أن عاد إلى ماكان عليه أيام أبيه وجده.

وقد توالى على حكم النزارية منهم ثمانية أشخاص هم: حسن الصباح الحميري وكيابزرك أميد وحسن بن محمد بزرگ أميد. ومحمد بن حسن وجلال الدين بن محمد بن حسن وعلاء الدين محمد بن جلال الدين بن محمد وركن الدين خورشاه بن علاء الدين الذي قتله هولاءكو وانتهت به دولة الإسماعيلية النزارية الباطنية التي دامت ١٧٧ سنة.

وإذا كان يبدو أن الدعوة النزارية لم تبدل في أول ظهورها أمراً ولم تختلف في شيء في سوى القول بإمامة نزار لا المستعلى وإمامة من بعده من الأئمة المستورين والظاهرين إلا أنها فيما بعد تحولت تحولاً أساسياً جذرياً عن المبنى الإسلامي الشيعي الإسماعيلي وأصبحت ذات عقائد

باطنية خاصة وغلب عليها وحدها على الرغم من ذلك اسم الاسماعيلية وهي التي تتبع في ايماننا آغاخان. ولعل أهل قواعد عقيدتها مايلى^(١).

١- توحيد الذات الإلهية وتنزيهاها على كل شيء قاله واحد أحد فرد صمد منزّه عن العد والعدد لم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

٢- الشهادة للصفات الإمامية:

ففي العالم على الدوام ممثل بشكل مرئي أو غير مرئي. وهؤلاء القريبون من السماء يدعون أنبياء أو أئمة. وحياة هؤلاء كحياة سواهم زائلة.

٣- معرفة الحقائق التأويلية لباطن القرآن الذي يعلمه الراسخون في العلم.

٤- التطبيق بالعمل في الشريعة والطريقة والحقيقة.

٥- الشريعة للمعاملات والعبادات وهي متطورة حسب الزمان والمكان تبعاً لنظرية المصالح المرسلة ولقاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان.

٦- الطريقة للسلوك في مراتب الدين وهي تجعل الليل لباساً للتقوى والنهار معاشاً للعمل ولها مجالسها التي يتأدب بها المريد.

٧- الحقيقة للوصول إلى الكشف الإلهي: حقيقة تحاول أن تمزج المحسوسات بالغيبيات وتجعل لكل أمر مثلاً وممثلاً ظاهراً وباطناً.

ولها مجالسها التي يحصل فيها التأمل.^(٢)

الاسماعيليون المستعليون (البهرة)

أما الفرقة الثانية التي قالت بامامة المستعلي بالله ابي القاسم أحمد فإنها بعد اغتيال الخليفة الأمر ابن المستعلي بالله بأيدي النزاريين وقع فيها أيضاً انشقاق، ففريق منهم، وهم الصليحيون، رأى أن الامامة انتقلت بعد المستعلي إلى ولده الطفل الطيب وأن والده قبل وفاته أوصى بنقله إلى اليمن واستودعه الملكة الحرة، كما يرون أن الطيب لم يظهر بل استتر وبذلك عاد دور الستر من جديد. وفريق آخر قال بخلافة الحافظ وقد رفضت الملكة الحرة الاعتراف بخلافة الحافظ وسمت نفسها كفيلة الإمام المستور الطيب بن الأمر. ولكن الحافظ استمال غيرها من اليمنيين فقلد علي بن سبأ بن زريع حكم اليمن ولقبه «الداعي المعظم المتوج المكنى بسيف المؤمنين». وبذلك شاطرت اليمن بالانقسام الجديد بعد أن نجحت من الانقسام تضععت أحوال اليمن وكانت الخلافة الفاطمية نفسها تمشي إلى الزوال، ومالبت نور الدين محمود بن زنكي أن مد يده إلى مصر وتقلد صلاح الدين الوزارة وانتهت الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ فأرسل حملة إلى اليمن بقيادة توران شاه الذي سيطر على هذه البلاد.

(١)- كما انبأنا الاستاذ خضر حموي أحد رجال الاسماعيلية النزارية وعرفائها.

(٢)- نكرر القول أن هذا يستلزم به الاسماعيليون النزاريون اتباع آغا خان وحدهم، ولا علاقة لغيرهم من الاسماعيليين بهذه الآراء التي أعلنت بعد زوال الدولة الفاطمية.

ويقول مؤرخ اسماعيلي: «أما الطيب فقد ولى دعاة مطلقين بعد الملكة الحرة وأصبحت هذه الدولة دينية محضة بعد الصليحيين لاشأن لها بالسياسة الدنيوية».

وقد اعتصم الاسماعيليون المستعليون بجبل حصين من جبال اليمن يتعاقب منهم الدعاة المطلقون حتى بلغ عددهم ثلاثة وعشرين.

فبعد الملكة الحرة قام بالدعوة في اليمن ذؤيب بن موسى الداعي المطلق وتعاقب بعده الدعاة حتى محمد عز الدين وبقي مركز الدعوة في اليمن زهاء أربعة قرون ثم انتقلت الدعوة إلى الهند وعرف اتباعها باسم «البهرة» ومن العوامل التي أثرت في نقل الدعوة إلى الهند ما كان من صلات تجارية بين اليمن والهند، وأقبال الاسماعيليين على التجارة، كل ذلك أتاح للدعاة فرصة بث الدعوة بين الهندوس حتى تكونت منهم مجموعات اسماعيلية مستعلية لاسيما في جنوبي بومباي.

ويقال أن الاسم الجديد الذي أطلق على معتنقي المذهب «البهرة» مشتق من صفتهم المهنية التي طغت على كل مهنتهم وهي التجارة وأن «البهرة» كلمة هندية قديمة معناها التاجر.

وبعد انتقال الدعوة إلى الهند انقسمت إلى فرقتين: فرقة السليمانية وفرقة الداودية وكان الانقسام بسبب من يتولى مرتبة الداعي المطلق فالداودية تنتسب إلى الداعي قطب شاه داود بن عجب شاه المتوفي سنة ١٠٢١هـ والسليمانية تنتسب إلى الداعي سليمان بن حسن الذي أبى اتباعه الاعتراف بداود واعترفوا بسليمان سنة ٩٩٧هـ داعية لهم.

ولا يتجاوز عدد الاسماعيلية (البهرة) من كلا الفرقتين المذكورتين المليون ونصف المليون، وعدا عن شبه القارة الهندية الباكستانية فإن البهرة يوجدون في عدن وجبال حراد في اليمن والحديدة وأفريقيا الشرقية وجيبوتي وبريرة ومدغشقر وسنغافورة والهند والصينية واندونيسيا. وللإسماعيلية البهرة في شبه القارة الهندية الباكستانية مؤسسات عظيمة ودور وعمارات وملاجئ ونحو ثلاثمائة مدرسة منها الجامعة العربية السيفية بسورت التي أسست قبل مائة عام لتدريس العلوم الدينية باللغة العربية وفيها يجد الطالب البهري جميع ما يحتاجه من مأكّل ومشرب وملبس وكتب وأدوات كتابية وغير ذلك مجاناً.

والباقي مدارس ثانوية وابتدائية تدرس سائر العلوم باللغات الانكليزية والأوردوية والكجراتية. وللبهرة نحو مائة مسجد منبثة في كثير من المدن والولايات في شبه القارة الهندية الباكستانية وأكبر هذه المساجد وأفخمها مسجد بومباي المعروف بغرة المساجد ولكل جماعة في كل مدينة من المدن (داع) يعين للنظر في شؤون الجماعة الخاصة والهيمنة على سائر أحوالهم الشخصية.

وللبهرة في الخارج مؤسسات كبيرة ودور ضيافة واسعة أعدت خصيصاً للضيوف النزلاء من جماعتهم عند حلولهم في أي مدينة من المدن التي يكثر فيها أخوانهم أو التي يترددون عليها من وقت لآخر، من ذلك قصر سيفي بمكة المكرمة والمدينة المنورة ثم قصور الضيافة في كربلاء والنجف الأشرف وبغداد والبصرة وعدن وأفريقيا الشرقية.

الخلط بين الفريقين

يخلط كثيراً بين أمرين: الأول (الأغاخانية) ومذهبها وبين الفاطمية الاسماعيلية ومذهبها لأن الفاطميين هم أصحاب المذهب الإسلامي الشيعي الاسماعيلي الذي لايمت بصلة إلى ما آل إليه المذهب الاسماعيلي النزاری الباطني (الأغاخانية) كما أوضحنا. وقد تعمد خصوم الفاطميين الخلط فضاعت الحقائق على طالبيها وأسيء إلى الفاطميين ومذهبهم اساءات ظالمة.

والثاني: الخلط بين الاسماعيلية النزارية الباطنية (الأغاخانية) وبين الاسماعيلية المستعلية (البهرة) التي هي امتداد للمذهب الإسلامي الشيعي الاسماعيلي الفاطمي.

مثال للخلط بين الفريقين وعقائدهما

وكمثال للخلط بين عقيدة الاسماعيليين البهرة وبين عقيدة الاسماعيليين النزاريين (الأغاخانية) وعدم توخي الحقائق والجهل بها نورد آخر مثال على ذلك صدر في (موسوعة عبد الناصر في الفقه الإسلامي) المطبوعة حديثاً في عام ١٩٧٢ وهو ماورد في الصحيفة ٣٢: «مذاهب شيعة علي، وهم طوائف كثيرة جداً، أشهرها الزيدية اتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن علي والإمامية وهم فرق أشهرها الشيعة الإمامية الاثنا عشرية (الجعفرية) والاسماعيلية أو الباطنية ومنهم العبيديون أو الفاطميون... والمذاهب الثلاثة لا تزال قائمة وأن كان الغموض حليف فقه الاسماعيلية منذ ظهورها حتى اليوم.

وجاء في الصحيفة ٣٥:

«أما الفرقة الاسماعيلية فلها اتباعها ولكن فقهها ليس بظاهر».

وجاء في الصحيفة ٣٦: «أما الشيعة الإمامية الاسماعيلية أو الباطنية فقد ظهر مذهبهم في شمال افريقيا ودخلوا به مصر حينما استولوا عليها وعلى بلاد الشام وكان مذهبهم المذهب الرسمي وشاركه بعض المذاهب الأربعة وبقي بمصر مدة دولتهم غير أن أحداً من أهل مصر لم يتبع هذا المذهب وقد انقرض هذا المذهب وأهله من مصر بزوال الدولة الفاطمية ولم يبق اليوم من هذه الطائفة سوى اتباع اغاخان بالهند وجنوب افريقيا وبعض بلاد الشام ولايعرف لهم فقه اليوم وجاء في الصحيفة ٣٦: «أما مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشر فكان مذهبهم منتشراً بالعراق وآسيا الشرقية وبعض بلاد الجزيرة وهو اليوم بالعراق وفارس واتباعه أقلية في البلاد الأخرى».

هذا ما ورد في موسوعة عربية أشرفت عليها مؤسسات حكومية وشعبية ومن هنا يحق لنا أن نتساءل إلى متى يظل الناس في هذا الجهل بالحقائق ومتى يمكن أن يرجعوا إلى المصادر الصحيحة ويكتبوا بتجرد وأخلاص وفهم؟

١- أن الزيدية ليست أشهر مذاهب الشيعة، بل أشهرها المذهب الجعفري وهو ما يطلق عليه المذهب الاثنا عشري وأحياناً الإمامي، وليسوا محصورين في العراق وفارس وليسوا أقلية في كثير من البلاد الأخرى.

٢- في الأصل أن كلمة الإمامية تعم الزيدية والاثني عشرية والاسماعيلية الفاطمية وهي في

